

في تاريخ بيروت...حاضرة النهوض والتحدي

خالد زيادة

حين يصل القارئ الى الصفحة الأخيرة من كتاب 'تاريخ بيروت'، ويبدأ بتصفح المصادر والمراجع التي تشغل عشر صفحات يضاف إليها فهرس الوثائق المصورة التي سبق للقارئ أن التقى بها على امتداد الستمئة صفحة (ستمئة وخمسون صفحة مع الهوامش) التي انكب على تحريرها سمير قصير، يتساءل القارئ مثلي، كيف تأتي لسمير أن يجمع كل هذه المادة من صور ومخططات وأوراق مبعثرة فضلا عن الكتب باللغات الثلاث والوثائق والصحف والمجلات. لا يمكن باحثا أن يجمع مثل هذه المادة الغزيرة وينجز تحرير عمل بهذه الضخامة والانتساع في مدة قياسية. الباحثون في الوسط الأكاديمي الذي أعرفه يمضون سنوات طويلة لجمع مادة موضوع مماثل، ويقضون وقتنا أطول في تصنيف المراجع وغرابة المواد وإقصاء المعلومات التي يرتأون إقصاءها. عملية الإقصاء بالنسبة إلي أصعب من الجمع، لأن الكتب التي تؤلف هي بقية ما حذف لا ما جمع، وهي نقطة سنعود إليها .

وإضافة الى المراجع والمواد، هناك الأحاديث والمذكرات الشفوية التي جمعها سمير من بيروتيين عارفين ببيروت وأحوالها، وحده سمير بإحاحه وإغوانه يمكنه أن يجمع مثل هذه المادة. لكن يبقى السؤال مطروحا: كيف لغير سمير قصير أن ينجز كل هذه المهمة الضخمة والشاقة، إذ تكمن الصعوبة في الموضوع نفسه، أن تكتب عن بيروت التي تحيط بنا وتسكننا، والتي تخص العشرات بل المئات من الكتاب، فضلا عن أهلها وسائر اللبنانيين. أقول إن الصعوبة ليست في تدبير الستمئة أو سبعمئة صفحة، لكن الجرأة في الموضوع وفي المحصلة الأخيرة، أراد سمير أن يقول هذه بيروت التي تعرفونها، بل هذه بيروت التي لا تعرفونها، على الأقل كما أعرفها. ومذ ذاك أصبحت بيروت تملك تاريخا مكتوبا أو رواية مهورة بتوقيع سمير قصير.

لكن قبل المادة التي نجمها لا بد من فكرة أو سؤال. الفقهاء القدماء كانوا يقولون: حسن السؤال نصف العلم. وأعتقد أن تاريخ بيروت هو عبارة عن سؤال، أو محاولة الاجابة عن السؤال: لماذا بيروت دون غيرها من المدن هي التي اضحت عنوان الحدائة العربية؟

وبالأصل: كيف أمكن هذه القصة البحرية شبه المنسية أن تصبح محط أنظار، وأن تقتنص كل الفرص؟ طبعاً السؤال الرئيس يطرح سلسلة طويلة من الأسئلة، التي ترك للصفحات والتطورات أن تجيب عنها من تلقاء نفسها .

من حيث الشكل ومن حيث مقتضيات البحث ومتطلبات النشر، رجع سمير قصير الى البدايات الكلاسيكية والحقب التاريخية القديمة. لكن سمير الناقد للايديولوجيات والأساطير والخرافات، يعرف أن صلة مدننا بتواريخها متفاوتة، وخصوصا حين يتعلق الأمر ببيروت ذات الخمسة آلاف نسمة في بدايات القرن التاسع عشر التي استعادت مع نهايته ومع علماء الآثار الفرنسيين وسواهم فينيقيا وبيروت الرومانية ومدريستها الشهيرة للحقوق. يتساءل سمير عن حق ما اذا كانت لهذا التاريخ القديم صلة ببيروت الحديثة. الأمر الذي يطرح إشكالية كتابة تاريخ المدن. إلا أن المهم هو تاريخها في القرنين الأخيرين. ويختصر بالقول: 'في إمكان بيروت أن تعرف خلال هذين القرنين وأن ترسم إطارا لتاريخها، ولنجرؤ على الادلاء بهذا التعريف المتسم بأكثر قدر ممكن من الاختزال. لنقل إن أهمية بيروت المبدئية هي أنها بالنسبة الى المؤرخ حاضرة عربية متوسطية ذات طابع غربي' (ص41).

لكن متى وكيف بدأت بيروت الحديثة، مع قصف الروس للمدينة بين 1772 و 1777، مع أحمد باشا الجزائر، مع الاحتلال المصري ابتداء من عام 1831 وحتى 1840، يتحدث سمير عن فرصة تاريخية، يقول: 'لا شك في أن بيروت تدين لابراهيم باشا بهذه الانتفاضة التي جاءت في حينه، وكان قدرا عجيبا أدار عقارب الزمن. مذ تولى ابن محمد علي الحكم على بلاد الشام، شرع في الإصلاح الاداري للمدن ومن بينها بيروت، لكن ساحة القدر كانت باطلاق ورشة لتوسيع المرفأ وإعادة بناء الرصيف. وهكذا غدت بيروت درة الشرق بمرفئها الذي بات جاهزا لاستقبال السفن التجارية. وعلاوة على ذلك، أنشئ محجر صحي تحول لاحقا الى محجر أساسي للمرفأ السورية' (ص107).

فهل المحجر الصحي، الكرنتينا، الذي انشأه ابراهيم باشا على بعد كيلومترين أو ثلاثة من المرفأ عام 1834، هو الفرصة التاريخية التي جعلت من بيروت محطة إلزامية لكل المراكب البحرية (ص124-125). منذ ذلك بدأت بيروت بالتوسع والنظور من دون توقف. وكان الأمر مدركا من جانب أولئك المراقبين الغربيين. فالقتصل 'عيز' كتب عام 1847: 'بيروت تستعد اليوم لتأخذ مكانها بعد إزمير والاسكندرية' (ص129)، لكن البدايات تعاقبت من توسيع المرفأ الى شق طريق الشام، كل خطوة ادارية أو اقتصادية أو عمرانية ليست سوى تراكم للبدايات .

وتتصافر الظروف وتتسع بيروت ويتضاعف عدد سكانها في عشرين سنة بين 1830 و 1850 أربعة أضعاف. تمدها الأحداث الطائفية في الجبل بالسكان. يذهب سمير قصير الى أن بيروت قد صنعت نفسها بنفسها الى حد كبير مستفيدة من كل ظرف محيط، حتى أضحت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع انشاء الكلية السورية الانجيلية عام 1864، ثم اليسوعية 1881، مركز النهضة الأدبية واللغوية العربية .

وكما أسلفت، فإن الكتاب عبارة عن إجابة عن سؤال: لماذا بيروت وكيف؟ فإن سمير لا ينفك يتعقب هذه البداية التي لا تنتهي، كأن بيروت تريد أن تكون الأولى في كل شيء، أليست أول مدينة أو عاصمة تحتلها اسرائيل؟

كانت وجهة نظر سمير قصير في أسباب نهوض بيروت واضطلاعها بهذا الدور مدار جدل عندما صدر الكتاب للمرة الأولى بالفرنسية، لأنه يخفض من شأن الجبل والمتصرفية في اتساعها وازدهارها، ومع ذلك فإنني أقرب الى وجهة نظر سمير.

يبقى أن اتحدث عن المنهج الذي اتبعه في تأليفه هذا الكتاب. لست أدري إذا كان سمير قرأ دراسة قديمة للمستشرق الألماني غوستاف فون غرونباوم عن مدح المدن في الأدب العربي. يتحدث غرونباوم عن أسلوب الكتاب العرب في مدح المدن واستخدام السجع والجمال الإسمية القصيرة مثل: عمرانها جميل وهوؤها عليل. لا شك في أن تاريخ بيروت هو أيضا جزء من هذا الأدب العربي القديم، إلا أنه أدب محدث، لا يستخدم فيه الجمال الإسمية ولا أسلوب السجع. فبعد التمهيد الطويل الذي يستخدم سمير فيه أسلوبا شاعريا، فإن فصول الكتاب أقرب ما تكون الى فصول رواية اسمها بيروت، هناك دراما الصعود والازدهار ثم الحرب والدمار ثم إعادة النهوض الاشكالية .

من الطبيعي القول إن سمير قصير الاكاديمي والاساذ الجامعي التزم معايير البحث العلمي، إلا أنه تجاوز حدودها الصارمة. ولأن الكتاب يشبه صاحبه، نجد في الكتاب الجانب الأكاديمي والجانب الصحافي، كما أحب سمير أن يكون، كما نجد طرفا من طبعه ومزاجه الشغوف بالخبريات، التي تتكاثر بين الأشرافية والجميزة والبسطة والمصيبة والزيتونة بطبيعة الحال .

لكننا نبخس الكتاب حقه إذا قلنا إنه كتاب تاريخ بالمعنى الشائع للكلمة، إنه كتاب تاريخ من حيث تعاقب الوقائع، لكنه أقرب الى روح الاجتماع والانترولوجيا .

يلاحظ القارئ ان سميرا في تأليفه قد طوع المواد المتباينة من أجل صوغ فكرة ما، لذا نجد أن المعطيات الاقتصادية والعمرانية تندمج في مناخات بيروت الفكرية والأدبية، في العادات والعادات المستجدة. بهذا المعنى أنجز سمير قصير نصا فريدا، لا يمكن تجاوزه بسهولة، وقد فرض أسلوبا جديدا في كتابة تاريخ المدن العربية .

من يقرأ كتاب 'تاريخ بيروت' ينتابه الشعور بأنه يهرول أو يركض خلف سمير في تجواله بين ساحات المدينة وشوارعها ومبانيها. ونظرا لغزارة المادة والمعطيات التي ذكرها من دون أن يستنفذ تحليلها، فإن سميرا لو لم يكن مضغوفا في الوقت كما أخبرنا في البداية لكان حجم الكتاب، قد تضاعف، يشعر أنه يريد أن يقول أشياء أخرى لا يتسع الوقت لها.

ترى، ما الذي كان سيقوله عن بيروت اليوم؟

الموضوع :عام

المصدر :الحياة